في الأدب الجزائري

مولود معمري

بقلم عثمان سعدي

ـ تتمة المنشور في العدد الماضي ـ

ان الدلائل تدل على ان الكاتب كان متأثرا ـ اثناء كتابة روايته هذه ـ بالثقافة الاستعمارية ، فهو يقدم لنا منطقة « القبائل » كانها وطن مستقل ، لا تؤلف جزءا من الجزائر ، وهو يعتبر عرب الجزائر بعيدين عن القبائل بعد الفرنسيين عنهم : « فهذا او ذاك او الاخر يختفون اشهرا للعمل في فرنسا او عند العرب (ص٢٤)

ويذهب ايدير الى المغرب فيشاهد « سكان الريف الذين يشبهون القبائل » (ص ٣٩) وهو يقول في صفحة ٨٢ : «ان البلدان العربية (في الجزائر) غنية » . ولا ادري هل هذا الغني الذي يقصده المؤلف ، يوجد في جبال بو سعادة الجرداء ، او في مناطق اللماشة القاحلة ، التي تزحف الرمال وتغطي الكيلومترات من تربتها ، في كل سنة .

ويقسم المؤلف سكان الجزائر الى ثلاثة اقسام : « شاوية وقبائل وعرب » (ص ٢١٦) ، وهو يشير الى حروف بربرية في صفحة ١٨٣ . وانا الذي اعرف هذه اللغة كما يعرفها معمري ، لا اسمع ان للغة البربرية حروفا ، اللهم الا تلك الحروف البدائية التي لا زالت تحتفظ بها بعض قبائل الطوارق ، في جنوب الجزائر . وحتى هذه الحروف مستمدة من الفينيقية ، اي عربية الاصل .

فالقارىء اذا ، لا يحس ان (قبائل معمري) ، خيوط في نسيج علم اسمه الجزائر ، متصل بنسيج اعم اسمه العروبة ، بل انه يتبنى فكرة المستعمرين الفرنسيين بالمغرب العربي ، الذين حاولوا احياء النزعة البربرية ، واللغة البربرية ، الا ان محاولاتهم ، تحطمت ، امام وعي الجماهير العربية القاطنة لجبال زواوة ، او لجبال اوراس ، او لجبال الهوقار ، او لجبال الريف . وان المنطقة التي اخرجت لنا ابطالا خالدين « كميروش » ، ليست هي القبائل التي يعنيها معمري ، وانما هي هذا الجزء العزيز على الجزائر ، وعلى العروبة .

ان النزعة البربرية نزعة خلقها الاستعمار ، وعمل على تغذيتها طيلة قرن وربع قرن في الجزائر ، والمغرب الاقصى . حاول ان يسخر كل اجهزته من مدارس ، وصحافة ، ومستشرقين واذاعة ، لخلق شيء اسمه اللغة البربرية ، وكيان اسمه البربر ، خصص حصصا في المدارس لتدريس اللغة القبائلية ، وأسس المجلات بها . وعندما وجد انها لاتملك حروفا اعارها الحروف اللاتينية ، في الوقت الذي يحارب فيه تعليم اللغة العربية بكل ضراوة . وهو يهدف من وراء ذلك ، الى تفريق صف الجزائريين ، حتى يسهل عليه التهامهم . الا ان شعب الجزائر العربي كان يقف بالمرصاد لكل مؤامرة تحاك ضد عروبته ، ووحدته ، ويخنقها في مهدها ، وفي مقدمة هؤلاء الواقفين ، كان عرب جبال زواوة انفسهم .

فمعمري ... هذا الفنان الكبير ، يقع تحت تاثير اساتذته الفرنسيين دون ان يشعر ، فيصدق « اكذوبة الشعب البربري » ، وينتكر لعروبة شعب الجزائر ، التي لا اظن انه يستطيع انكارها الان بعد هذه الثورة الجبارة .. فهذه الروح التعاونية التي بسطها معمري في روايته : هدايا اصدقاء واقارب مقران لعروسه .. القماطة التي قدمتها آعزي لكو عند انجابها ... عطف كل من آعزي ودافدا على كو ... ثم عطف دافدا بعد ذلك على الاثنتين .. وهذه الصفات المجسمة للرجولة ، كتغطية والد مقران لوجهه بقلنسوة برنوسه ، عند موت ابنه ، لانه « عار على رجل ان يظهر الله للغير .. » وعادة التصدق على روح الميت عند قبره .. وحتى انشودة الدعاء على المولود ، التي يترجمها معمري عن القبائلية في (ص٢٠١) . كل هذه الصفات قدمها لنا الكاتب على انها عناصر تؤلف شخصية (القبائلي) ، ولو خرج من عزلته المفتعلة ، وفتح النوافذ امام ملاحظاته الدقيقة ، لوجد ان هذه العناصر يشترك فيها الاوراسي والقبائلي ، والبو سعادي ، واللموشي ، والسوق اهراسي ، بل والعميدي والعلوي ، والنجدي والموصلي .

ونتساءل ايضا ، لماذا يتحدث المؤلف عن الحرب دون ان يتعرض لعلاقتها بالجزائري ، وشعوره نحوها ؟ ودون ان يحلل مشاعر مقران ، ومناش كجزائريين ؟ وهما يحاربان من اجل امجاد الجيش الفرنسي العدو المستعمر ؟! بل لماذا لم يمد نطاق روايته ، اياما قليلة ، ويتناول كيف جازت فرنسا والحلفاء الجزائر على مساهمتها في تحطيم النازيين بمذبحة ٨ مايو (ايار) ١٩٤٥ ، التي سحق الطيران والاسطول الفرنسي فيها ، اربعين قرية و ٤٥٠٠٠ جزائري وجزائرية .

لقد كان معمري ضائعا ، وسط دوامة طريقة تفكيره الفرنسية ، التي طغت على ذهنه ، وحالت دون فهمه للواقع الجزائري ، وجاءت روايته : « الهضبة المنسية » فعكست هذا الضياع .

اما من الناحية الفنية ، فان احدا لايجادل في كفاءة معمري وتمكنه من فنه . فاسلوبه جميل ، بث فيه روحه الشاعرية ، فقدم لنا لوحات خالدة مثل صفحات : ١٢١ ـ ١٣٤ ـ ١٣٥ ـ ١٥٠ . وهو ينجح في رسم الطبيعة الجبلية الجميلة ، الرهيبة ، لجبال جرجرة . وهو يوفق في متابعة هبوط قوى مقران وضعف مقاومته للعاصفة الثلجية من الداخل ، وكيف لم يبق سوى لاوعيه ، المعبر عن تانيب ضميره ، في هذيان محموم يشبه لحظة التجلي عند الوجوديين . ان كاتبنا يطرق كل هذه العوالم الحساسة دون ان يتكلف او يتصنع .

والرواية غنية بايحاءات العبارة : ففي صفحة ٤٧ يودع الاباء والامهات ابناءهم الى الجندية ، بالعويل والنواح ، ويوصلونهم الى مقبرة القرية ثم يعودون ... والتطور الذي لازم الحوار الذي دار بين دافدا ومناش في بيت آعزي ، فهو يبدأ بضمير الغائب دون ان يجرؤ الحبيبان ـ امام التقاليد ـ على استعمال ضمير المخاطب ، ثم تطغى في نهاية الحوار

مشاعرهما على التقاليد والعرف ، فتحطمها ، ويختفي ضمير الغائب ، ليحل محله ضمير المخاطب .

اما البناء الروائي فهو متماسك . فالمؤلف يتبع اسلوبا رائعا فيمزج بين المونولوج الداخلي ، والرواية من الخارج ، في رواية واحدة : فمن اول الرواية الى صفحة ١٨٣ يروي لنا البطل الاحداث ، ثم بعد ذلك يرويها لنا الكاتب نفسه .. وفي صفحة ١٨٣ نكتشف حقيقة كانت مجهولة لدينا ، فقد كنا نقرأ من مذكرات البطل نفسه ... ثم تنتهي المذكرات فجأة ، عند استيقاظ ضمير مقران ، على اثر رسالة مطلقته ، اي عند بداية التجلي كما يقول الوجوديون .. فنرى البطل يكف عن الكتابة فجأة ، لانه يصبح في حالة مشحونة بالمشاعر والاحساسات المتجاوزة لذاته ووجوده ، هذه المشاعر التي تجعل الكلمات والحروف المعبرة عنها ، تقف عاجزة حيرى . وينصرف البطل لنهايته في صمت ، ثم يأتي بعد ذلك الراوي ليكمل لنا هذه النهاية .. ثم حالة اصدقاء المرحوم واقاربه بعده .

وقد يبدو للقراء بعض الافتعال في مواقف شخصيات معمري . لكن القاريء الذي يتفهم الحالات النفسانية لهذه الشخصيات لا يفسر هذه المواقف بالافتعال ، انما يعزوها الى نفسيات مريضة معقدة .

أما سبات العادل(١) : فهي الرواية الثانية لمعمري ، طبعت في اكتوبر ١٩٥٥ ، وهكذا تكون قد اعدت بعد مرور بضعة اشهر على اندلاع ثورة اول نوفمبر ١٩٥٤ . لقد أعادت الثورة الثقة الى كثير من شبابنا المثقفين، الذين كانوا يعيشون في عزلة عن واقع الجزائر ، ويجهلون ارادة شعبهم، والتيارات التي ستتمخض عن ثورة فريدة من نوعها . ولا شك ان كل من يقرأ روايتي معمري سيجد في روايته الثانية ، تغييرا جذريا في نظرة الكاتب للحياة ، وفي مفاهيمه حول الوطنية والثورة ، والشعب ، والحرب .

وكما كانت الحرب العالمية الثانية هي المحور الزمني الذي تدور عليه احداث لرواية في « الهضبة المنسية » ، فكذلك هو الحال في « سبات العادل » . والفرق يأتي بين الموقفين اللذين اتخذهما الكاتب ، ازاء هذه الحرب : فموقفه ، كما ، رأينا في الرواية الاولى ، موقف سلبي لا يعبر عن وجهة النظر الجزائرية ، أما موقفه في الرواية الثانية ، فقد عبر بعمق عن وجهة نظر الجزائري .

تروي لنا الرواية ، حياة أسرة من اسر الفلاحين ، التي تعيش بقرية (ايزغير) بجبال زواوة ، وتبدأ بمحاورة تدور بين بطل الرواية ، وبين أبيه الذي يعتبر من الشخصيات الاساسية . وهذه المحاورة تدور حول وجود الله ، فالاب الامين المتدين المؤمن ، يصطدم ـ لاول مرة ـ بابنه التلميذ في المدرسة الفرنسية ، الذي اصبح ملحدا بسبب تاثير المدرسة على مفاهيمه . ويناقش الابن وجود الله بطريقته التي اكتسبها من أسلوب النقاش في المدرسة ، وبعقلية غذتها النظريات الفلسفية : الطبيعية والمادية ، التي اطلع عليها . ويرد عليه الاب بآرائه البسيطة ، آراء الانسان المؤمن ، المستسلم لهذا الايمان . وعندما يعجز الاب عن اقناع ابنه ، بالعدول عن طريق الضلال والالحاد ، والرجوع الى جادة الصواب والايمان ، يلجأ الى بندقيته ، ويصمم على قتل هذا « الابن الكافر » ، ويهرب أرزقي ، ويطلق الاب عليه الرصاص فلا يصيبه .

وهذه الرصاصة يعتبرها الكاتب الشرارة الاولى ، لمعركة سيقودها جيل جديد : جيل المثقفين المتمردين ، ضد جيل قديم من الشيوخ القنوعين ، المستسلمين لاقدارهم . « فبعد زمن طويل ، ادرك الناس ، ان الكوارث التي على ايزغير ، خلال سنوات ، جاءت تالية لها (للطلقة)، وان هذه الرصاصة التي استهانوا بها ، كانت بمثابة الحصاة التي تسبق انهيارا جبليا، فأية قوة لن تستطيع ايقاف ما يتبع هذه الحصاة»(ص١٧)

التحق أرزقي بالمدرسة الابتدائية ، ثم بمعهد المعلمين في (تيزي ـ وزو) وتأثر بآراء استاذه في الفلسفة ، واعتنق افكار الحضارةالحديثة، التي وجد بينها ، وبين تقاليد قريته وافكارها وعاداتها ، هوة سحيقة ، فثار عليها واعتبرها عوائق تقف في طريق التطور ، وهذا الطلاق بين قيم ثقافته ، وواقع قريته ، جعله يتطرف في موقفه ، ولا يحاول البحث عن الاسباب الجذرية لهذا الجهل ، ولهذه التقاليد البالية ، وانما كان يفكر في تحطيمها فقط . لم يكن ثائرا يعمل على اجتثاث المشكلة من جذورها ، بعد دراستها والاحاطة بجوانبها ، وانما كان متمردا ميالا الى الهدم ، دون التفكير في البناء . ولعل احسن وصف نعت به أرزقي ، هو وصف اخيه سليمان له عندما يتعرف بالشاب الحزبي الثوري لوناس : « فكر سليمان في أرزقي ، وهو ينكر وجود الله في الساحة.. كان يفكر كثيرا في الهدم ،ولا ندري هل ينظر بعين الاعتبار لبناء شيء فوق الانقاض ؟ » (ص ١١٣)

ويطمح ارزقي الى تأدية رسالة تؤهله لان يحتل مكانا في التاريخ، الا انه ـ شأن كثير من المثقفين من جيله ـ حائر في الاهتداء الى هذه الرسالة ، فهو يقول : « أتفهم ... لقد مللت الاختناق في اغزير ، مللت الموت في نار خافتة ، تزداد يوما بعد يوم ... وسياتي اليوم الذي اغادر فيه المسرح، وسط لامبالاة بكل شيء ، دون ان اكون قد لعبت أي دور يذكر » . (ص ١١٦)

ان مشكلة أرزقي هي مشكلة المثقفين في البلدان المستعمرة ، فاستنارة عقول هؤلاء المثقفين ، لم يصاحبها تطور في عقلية الجماهير الشعبية يتناسب أو يتقارب معها على الاقل ، كما هو الحال بالنسبة للبلدان المتقدمة ، وانما قابلها عند الجماهير جمود وتحجر نتج عن انتشار الامية، وانكماش هذه الجماهير امام الحضارة الحديثة ، التي جاءتها بواسطة مستعمرين تكرههم وتحتقرهم ... وهذا هو الذي جعل ارزقي المتأثر بآراء استاذه الفرنسي المتحرر ، يثور على الحياة في قريته ، ويرميها بالجفاف والرتابة المملة ، والموت البطيء ، فيقول في رسالة لاستاذه : « انني وسط اناس يقضون وقتهم في تخطيط نفس الخط ...بطريقة معادة وتافهة ، كما تفعل ـ بتواصل ـ ثيران حقولهم ، انهم يسمون هذا حياة ، وانا اجاريهم في ذلك » (ص ١٢٠)

ويدخل ارزقي الحرب بحماس ، وهو يدرك لماذا هو يحارب ، يدخلها بعقلية الشاب المبهور ، امام المثل الانسانية ـ الثقافية ، دون ان يحوم فكره حول علاقته كجزائري بهذه الحرب . فهو يكتشف علاقته بالحرب كانسان في اول الحرب ، فيقول لاستاذه : « لقد جعلتني اومن ، بأن هذه الحرب مقدسة ، لانها تستهدف هدم القوى السيئة ، التي انطلقت من قمقمها ، واتجهت الى اعطاء الاولية للمادة على الروح ، وراحتتقيم من افكار مائعة ، لا محدودة تافهة ، او ضحلة واهية ، كالعنصرية ، وارادة القوة ، وارادة المجال الحيوي ، راحت تقيم من هذه الافكار ، اصنـاما ... » (ص ١٢١)

وتبدأ المرحلة الثانية من حياة ارزقي ، بدخوله الجيش الفرنسي ، كان طيلة حياته السابقة ، يؤمن بالافكار التي قرأها في الكتب ، او

---

(١) Le sommeil du Juste M. M'aâmmeri

سمعها ترد على لسان استاذه ، ويتصور ان كل الفرنسيين يؤمنون بها. الا انه يصطدم بالحقيقة المرة في الجيش الفرنسي ، ويكتشف ان المساواة معدومة بين الجندي الجزائري ، وزميله الفرنسي . وتتجلى له هذه الحقيقة عارية في حادثة المطعم التي يرويها في رسالة طويلة لاستاذه. لقد اتجه ذات يوم الى المطعم ، وكان اول من وصله ، وتبعه بعد ذلك زملاؤه الاوروبيون ، لكن الضابط الفرنسي المسؤول ، رفض ان يصرف له طعاما قبل الاوروبيين ، رغم انه كان اقل رتبة منه ، رفض وهو يقول له : « انه النظام ... الاوروبيون اولا ... » . وهذه المحاباة ، ليست تقليدا في الجيش الفرنسي فحسب ، وانما هي من صميم القانون : « انه (ارزقي) يعرف جيدا ان مادة قانونية تنص على ما يلي: في حالة تساوي رتبتين عسكريتين يجب على الضابط الجزائري ان يطيع الضابط الفرنسي » (ص ١٢٨) . والمرتب الذي يتقاضاه الجندي او الضابط الجزائري ، ثلث مرتب زميله الاوروبي .

وتتراكم كل هذه الحوادث المتناقضة ، مع ما تعلمه أرزقي في المدرسة الفرنسية عن القانون الفرنسي ، والثقافة الفرنسية ،والشخصية الفرنسية ، لتشحن كيانه كله بالغيظ ، ثم لتنفجر في حادثة المذياع . كان ارزقي يستمع في احدى الليالي ، مع زملائه الضباط الاوروبيين ، الى المذيع وهو يذيع من محطة فرنسية ما يلي : « لقد جاءوا من كل انحاء الكوكب ، يتحدثون كل اللغات ، ويعبدون كل الآلهة ، لكن الكل مشبع بنفس الحب ، اعظم حب ، لاكثر وطن انسانية . فرنسيون من فرنسا ، ومن مراكش ، ومن الجزائر ، ومن تونس ، ومن افريقيا الغربية، ومن مدغشقر ، ومن الهند الصينية ، او من (المارتينيك) . ليكونوا بيضا ، صفرا ، أو سودا ، كلهم متساوون ، كلهم احرار ... » .ويعبر ارزقي عن سخريته من هذا الكلام ، يعبر عن احتقاره لهذا الهذر ، اروع تعبير فيستغرق في ضحك هستيري متواصل . ويستفيق من قهقهته ، ليجد صياح زملائه الضباط الفرنسيين يعلو ضده . وتنتهي به هذه الحادثة الى الزنزانة حيث يقضي خمسة عشر يوما هناك .

وتجره هذه الحادثة الى حادثة اخرى مماثلة ، حدثت له في صباه ، « فلقد بدأ ـ كما يقول ـ سوء الفهم عندي ، منذ طفولتي المبكرة ».. فعندما انتقل ـ لاول مرة ـ من قريته الى مدرسة مدينة (تيزي ـوزو) الداخلية ، اهانه زملاؤه في الليلة الاولى ، فلم يتحمل الاهانة ، وهجم على طفل احمر كبير ، وشده من خناقه ، لكن الجميع انقضوا عليه ، ورموه ارضا ، ثم راحوا يوسعونه لكما وضربا : « وبحثت بين الجميع عن نظرة صديقة .. كانت الشفاه المزمومة تنبح بشتائم لم تطرق مسمعي قبل هذا اليوم . لقد قيدوا يدي ، وكان اخر منظر شاهدته كعب نعل مسمر ، لطفل احمر كبير ... » ولم يصح الا في غرفة التمريض .

ان الرواية تحتوي على كثير من هذه الحوادث التي مرت على أرزقي في حياته ، وهي كلها توضح ، ما يعانيه الطفل الجزائري من زملائه الفرنسيين المتعصبين في الدراسة ، وما يعانيه الشاب الجزائري عندما يحتك بجماعة فرنسية . ثم توضح لنا ـ وهذا مهم ـ المثقف الجزائري المؤمن بقيم الثقافة الفرنسية ، التي استمدها من الكتب ، عندما يصطدم بالحقيقة المرة ، ويكشف ان عددا هاما من الفرنسيين متنكرون لهذه القيم ، يعاملون كل من هو غير فرنسي ، معاملة سادة القرون الوسطى لعبيدهم ..

ويتذكر قول امين قريتهم العجوز : « ان علم الكفار يشبه علم السحرة المراكشيين ، فهم يستطيعون كل شيء لانهم يسخرون جيوشا من الشياطين » (ص ١٣٣)

ان هذا القول ،الذي يسوقه ارزقي عرضا ثم يضحك من بساطته . ونصائح ابيه له ، تحمل دلالة بعيدة المدى . فالجزائر التي استمرت تحت رحمة الاحتلال الفرنسي ، لم يحافظ على شخصيتها امام التشويه الثقافي الفرنسي ، سوى الام والاب والجد . لقد كان هؤلاء يربون ابناءهم ، وأحفادهم على كره المستعمرين ، لانهم اعداء الله ، وينشئونهم على عدم الاندماج كليا في ثقافتهم ، لانها ثقافة مستوحات من علم الشيطان ... وكلمة « رومي » التي كثيرا ما سمعناها من أمهاتنا عندما كنا صغارا ، لعبت دورا ايجابيا عميقا في حياتنا ، لازمنا تأثيرها حتى في مراحل وعينا ، وان اتخذ في بعض المراحل شكلا مغايرا لما كان عليه في أيام بساطتنا .

ثم تأتي المرحلة الثالثة في حياة ارزقي ، كان يؤمن بالثقافة الفرنسية، ويحتفظ ـ حتى اثناء وجوده بالجيش ـ بحقيبة مليئة بمؤلفات موليير، وشكسبير ، وهوميروس ، ومونتيسكو ، وغيرهم من اعلام الثقافة .وعندما دخل الجيش اكتشف حقيقتين ، كانتا خافيتين عليه ، وهما : انعدام هذه القيم الثقافية من حياة الفرنسيين الذين عرفهم في الجيش ، وتناقض الحرب مع كل قيمة انسانية . كان يرى نفسه غريبا شاذا بين هؤلاء الجنود والضباط الذين دفعهم الخوف من مصيرهم المجهول ، وسط حرب رهيبة ، الى ان ينقلبوا الى بوهيميين ، فهم يهربون من حالتهم الواعية ، الى العربدة ، والمسكرات ، حتى ينسوا الاهوال التي يعيشونها ، والمصير الغامض الذي ينتظرهم ...

من منشورات دار الاداب

دواوين نزار قباني

زينة لكل مكتبة

	الثمن
قصائد نزار قباني	٣٠٠ ق.ل
قالت لي السمراء	٣٠٠ ق.ل
طفولة نهد	٣٠٠ ق.ل
سامبا	١٠٠ ق.ل
انت لي	٢٥٠ ق.ل

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

ويقاوم ارزقي فينطوي على كتبه ، ويعزل نفسه في عالم جميل مثالي. الا ان التناقضات التي تحاصره ، والتفاهات التي تحوط به من كل جانب ، كانت تتراكم في كل يوم ثم تتجمع ، لتنفجر في احدى الليالي، التي شاهدت اروع موقف درامي لبطلنا ... فبعد ان سكر ارزقي مع رفاقه الضباط صاح على (ياوره) ، وطلب منه احضار « حقيبة الكتب» وكدس ارزقي الكتب ثم اضرم فيها النار،وسط هتافات زملائه ورفيقاتهم، وهو يقول : « والان ، سيداتي ، سادتي .. ها هو يوم قد انتهى بعد ، ويوم آخر بدأ ... » ويختتم المؤلف هذا الموقف بهذا الحوار الموحي الرائع بين ارزقي « ومعلمة المحل » :

ـ « يا سادة ... لكن ماذا تفعلون ؟

ـ ابول على الافكار . اجابها ارزقي .

ـ مـــاذا ؟

ـ وهل انت صماء يا صانعة الصاج ؟.. اقول لك : ابول على الافكار ... اظن انك لا تفهمين معنى (بال يبول)

ـ بال ، نعم ـ قال الطبيب ـ لكن ، الافكار .. لا تبالغ كثيرا ، فليس هنا مكان للبحث عنها ... »

وهكذا يسدل الستار على ارزقي المثقف ، ليظهر ارزقي اللامبالي ، الضائع ، ضحية الحضور الاستعماري ، وبشاعة الحرب ، ثم ينتهي بعد ذلك وجوده بالحرب باحداث توضح دور الجزائري الفعال في انتصار الحلفاء في معركة (كاسينو) المشهورة . وانطباعاته على حالة الشعب الايطالي ، الذي تمزقه الفروق الطبقية ، ولامبالاة الجندي في الحرب ، وسخريته من كل قيمة .

ثم تنتهي الحرب فيظن ارزقي ان مشاكله قد انتهت ، الا انه يخطىء التقدير . فمشاكل الجزائري لم تنته بانتهاء الحرب ، وانما بدات . ويقيم في باريز ، ويشاهد زملاءه الضباط الفرنسيين تنسب اليهم الوظائف ويكافأون على ما بذلوه من مجهودات في الحرب ، في الوقت الذي يرجع فيه الشبان الجزائريون الى البطالة . وتدفعه الظروف الى تزييف اوراق التموين ، ليتغلب على قساوة الحياة ، والى الارتماء بين احضان الغواني لينسى ... ويحس بطلنا بالفراغ ، فالاقبال على القراءة الذي رثه عن استاذه ، خبا منذ ان كان في الجيش، والامل في تحسين احواله بعد الحرب تلاشى ، لا وظيفة يبني بها مركزه ، ولا حرفة يكد بواسطتها ويكسب ، فهو ضائع في دجى لا قرار له ، ويبدا يفكر في وسيلة تمنح معنى لحياته ، « ان الذي يبحث عنه ارزقي الان ، هو عقيدة من اجل الحياة ، شيء يمكن ان يحل محل كلام الاستاذ . وامل ان يجد الطريقة في الحزب ... »

ويتصل « بحزب الشعب » ـ المنظمة الثورية الوحيدة : الا ان الهزات التي تخللت حياته ، وما تركته في نفسيته من اثر ، جعلته يستقبل هذه التجربة الجديدة ببروده المعتاد ، وبشيء من اللامبالاة والسلبية ، يكسب في احدى المسابقات مبلغا من المال ، في وقت تفرض فيه السلطات غرامة على جريدة الحزب ، وعندما يتصل بالشخص المسئول في منزله ، يكتشف عدم اخلاصه ، وتبذيره لاموال الحزب ، فتحدثه نفسه الا يدفع المبلغ . لكن ارادته تنتصر في اخر الامر ، ويغادر بيت المسؤول بعد ان يقدم المبلغ ، ورائحة البطيخ منطلقة من المطبخ ، وهو خاوي الجيب ضامر الاحشاء .

ان ارزقي ـ حتى وهو يضحي هذه التضحية الرائعة ـ يتصرف تصرف الشخص اللامبالي ، الذي تمزقه عقد ومشاعر فوق تحمل ارادته ، وكلما تمعنا في سلوكه ، وجدنا ان سلوك اخيه سليمان الامي البسيط ، اكثر فعالية ، واعمق تفهما للاحساس الوطني منه .

ويقرر ارزقي مغادرة فرنسا الى الجزائر ، ويكشف لنا في المحطة عن حقيقة كانت خافية عنا ، فهو يحمل نوعا من الشعور لا يحدوه « لالفرايد » تلك الفتاة الفرنسية ، التي التقى بها لاول مرة في مزرعة صاحبها على راس فرقته ، وطهرها من جنود الالمان ، وبعد الحرب يلتقي بها في باريز . لكن كلا من الطرفين يسلك مسلكا غامضا نحو الاخر . وفي محطة قطار مرسيليا ، ولحظة انتظار ارزقي لالفرايد ،التي وعدته بالحضور ، يتصرف ارزقي تصرفات نفهم منها انه يحمل لها لونا من الشعور ... ان ارزقي غامض في تجاربه الذاتية غموضه في تجاربه الاجتماعية .

ويصل ارزقي الجزائر ، فيجد الحالة اسوأ مما كانت عليه قبل الحرب ، ويحلل لنا الراوي التناقضات التي تعيشها الجزائر : رفاهية وسعادة بين الاوروبيين ، وبؤس وشقاء بين الجزائريين : « ويسلك (ارزقي) الرصيف الايسر تحت الاروقة . واكياس للاسمنت فارغة ممددة ، نائمين بجوار صرر من الخرق ، والياس للاسمنت فارغة . كان كل واحد مكورا على الاخر ، في هيئة من تلقى رصاصة في بطنه ، ويحاول ان يعيد احشاءه النافرة ... » (ص ٢٠٤) . اما الاوروبيون فهم يعيشون في سعادة ورفاهية :« انها الساعة التي يستعرض فيها الشبان ، الصاعدون على احذية ذات نعل من ثلاث طبقات ، الساحبون، على رصيف مزدحم ، بدلهم الفاخرة ، وفراغ اعينهم ، وهذه اللهجة الجزائرية (الفرنسية) ذات الجلافة الممقوتة . ويبدو لمن يشاهدهم وكانهم يعجبون لهذا البلاط الذي لم يتملكه افتتان يتناسب مع حمله لهم .. » (ص ٢٠٥) . فارزقي ، امام هذه التناقضات يشعر انه انتقل من عالم الى عالم اخر ، او من قارة الى قارة اخرى ، لا من شارع الى شارع آخر ، وسط مدينة واحدة : « وتصور ارزقي انه في حلم : وتملكه شعور شبيه بشعور المسافر الذي نام مساء بفيينا ، في قطار الشرق السريع ، وفتح عينيه صباحا ، ليجد نفسه في اسطنبول. فعبر العالم بين استيقاظتين ، ومع ذلك فالعالم الاخر ، كان هنا غير بعيد ، في الطرف الاخر لمفرق الطرق . هذا المفرق الذي كان مفتوحا لكل الرياح قبل اكثر من مائة سنة ، اصبح يكون ستارا ... » (ص٢٠٥)

وينزل ارزقي العاصمة ، ويذهب الى قريته (ايزغير) ، ويجد اسرته في حالة سيئة جدا : « بؤس من الدرجة الاولى ، بالنسبة للاخ الصغير ، ولي ، ولموحند ، ولزورق (ياوره في الجيش) ، وللاب ، وللجميع ... ما عدا توديز ... » . والناس في قريته ، الذين يمزق حياتهم الفراغ ، والبؤس ، يلجاون الى (الدومينو) يقتلون الوقت الثقيل بواسطته ، كما قال له سليمان : « كنا ، قبل الحرب نعيش بآمال .. وانا كنت كذلك طبعا .. وكان صوت (الدومينو) يثيرك ، وكنت تسخر منه . لكن (الدومينو) بالنسبة لنا يا اخي ، كان كالخبز والماء . لم نستطع العيش بدونه . حياة بدون امل ... امل في ماذا؟!» (ص ٢١٢)

وتطورت حالة الناس في قريته الى ما هو اسوأ لان حياتهم صارت تسممها بعد الحرب الخيبة . وينتهي الوضع في القرية الناتج عن الحضور الاستعماري في الجزائر ، باغتيال موحند ـ شقيق ارزقي المسلول المحتضر ـ لتوديز عميل الادارة الفرنسية . ويلقى القبض على كل شباب القرية ، الذين وشي بهم توديز قبل موته بلحظات ، للسلطات

الفرنسية . ثم يهرب ارزقي من الشرطة الى شاطىء النهر ، وتلم به الهواجس من كل ناحية ، فيبعثر اراءه وافكاره يمينا وشمالا ، في لحظة من التجلي الشبيهة باللحظة التي مرت على مقران اثر تلقيه لرسالة تامعزوزت الثانية في (الهضبة المنسية) .

ان العالم في نظر ارزقي ، يشبه العالم في نظر بعض ابطال كامو : « ان هذا العالم لتافه ، هذا العالم الذي تدق فيه السخافات والطواريء قلوبنا ، وتصدم فيه عقولنا » (ص ٢٣٢) . ويشك ارزقي في هذه اللحظة ، في وجود الروح عندما تراوده نفسه على الانتحار غرقا في النهر : « اين توجد روح موحند في هذه اللحظة ؟ وهل توجد روح ؟ وهل نملك روحا نحن كلنا ؟! » (ص ٢١٢) . ويتساءل : « لماذا هذا الظلم ، والبؤس ، وتفاهة الحياة والحقد » (ص ٢٣٣) . وتصل هذه اللحظة الشعورية قمتها لدى ارزقي ، عندما يصير يهذي بكلام لا معنى له ...

وتلحق الشرطة بارزقي ، وتوقفه ، ثم يودع السجن . وفي السجن، تصله رسالة صديقته مدام مورر ، التي تتمنى له فيها ، ان يكون في هذه اللحظة سعيدا مع اهله ، بعد ان انتهت الحرب التي الحقت مآسي بالجميع . ويعبر المؤلف في هذه الرسائل ، التي وصلت من فرنسا لارزقي بالسجن ـ في قالب من السخرية اللاذعة ـ عن حياة الفرنسي ، الذي اصبحت السعادة مسألة مسلما بها له ، بعد انتهاء الحرب ، في الوقت الذي لا زال يعاني الجزائري امر المصائب ... ويقدم ارزقي للمحاكمة ، بعد ان يطمئنه محاميه عن مصيره ، لان القانون لم يدنه بأية جريمة . ويدخل ارزقي في حوار طويل مع القاضي يوضح فيه الفظاعة التي يعيشها كل جزائري ، ويرتفع ارزقي في هذه اللحظة الى مستوى الوطني الجزائري ، العميق في وطنيته . فهو يدافع عن نفسه وكانه يدافع عن كل جزائري . فعندما يساله القاضي : « ونهاية الحرب الم تعلن ؟ » يجيبه ارزقي بقوله : « نعم. لكن لم تعلن بالنسبة لي ... انا » . ثم يعقب على هذا الجواب بينه وبين نفسه : « لقد اعلنت نهاية الحرب بالنسبة للجميع : بالنسبة للسويديين ، والقنبلة الذرية ، والروهر ، والامبراطورية الهندية ، وهوريشيما .. لكن ، لم تعلن بالنسبة لي انا .. » . وعندما يقول له القاضي : « ينبغي ... ينبغي...اذا لم يكونوا قد علموك في جامعاتنا كيف تكون حرا...» يسارع الى وضع اصبعيه في أذنيه ، وهو يردد في نفسه هذه العبارة الرائعة : « منذ ان عرفت الحياة في اول ابريل سنة ١٩١٩ ، حكم علي مسبقا الا اعرف سوى حرية الاخرين !.» (ص ٢٠٥)

والصدفة وحدها هي التي اقتضت ان يكون هو داخل القفص ، والقاضي خارجه ، وليست العدالة . انه يمثل الاستعمار تحت حماية القانون والتشريع : « انه (القاضي) لا يرى كم هو واه ، ذلك الخط الذي يفصل بين الغلطة والمبرر » (ص ٢٥٣)

ويختم ارزقي الرواية ، ومحاكمته بقول يردده بينه وبين نفسه : « تستطيع ان تنام ، يا سيادة القاضي : فمن الطبيعي بعد كل شيء ، ان يعقب سبات العادل ، سبات العدالة .. لكن ماذا يهمني انا (والاخرين) سبات ليلة ... او يوم ... بل ماذا يهم من سبات سنة: لا يوجد غير الموت الذي لن نصحو فيه ... »

ان هذه الخاتمة توضح لنا سوداوية ارزقي ، وغموضه ، ان قصته ، قصة الانسان الذكي الحساس الطيب : « ذي الصوت الناعم ، وبشرة البنت » . اطلق في عالم كله تناقضات ، وخصام ، وظلم : « يبدو لي انني اطلقت في غابة بكر ، دون أسنان تستعمل للنهش ، مجردا من السلاح ، مثقلا بذكاء ، ومردوما تحت انقاض من البراءة ، والشك والوساوس . شيء شبيه بالضحية المستيقظة ، او بخروف الاضحى..» (ص ٣٦١)

شيئا . يجب قبل كل شيء ، ان اكف عن ان اكون مبهورا ، يجب علي ان انه انسان ضائع في دوامة لا مخرج منها : « ادور ، وأدور ولا اعلم اجد ذاتي . اذا لم اكن قد تهت بعد ، بين الكثبان . والى الابد ... » (ص ١٣٩) . فتجربة ارزقي ، هي تجربة هؤلاء المثقفين الذين سحقتهم الثقافة الفرنسية ، وخلقت بينهم وبين مجتمعهم هوة سحيقة ، وحرمتهم من الارضية الاجتماعية ، التي يجب ان يضع عليها كل مثقف قدميه ، اذا اراد ان تكون لثوريته فعالية ، ولتمرده ايجابية . وهذا هو الذي يفسر لنا شخصية ارزقي ، وميوعة مواقفه ، وسلبية ثوريته ، فهو يكتشف الوضع الشاذ الذي يعيش فيه شعبه ، والتناقضات التي تمزق مجتمعه ، ويضع يده على الاسباب التي أوجدت هذا الوضع ، وتسببت في هذه التناقضات . آمن في اول تجربته الواعية بقيم ثقافية، وارتبط ايمانه هذا بلامبالاته بشخصيته الوطنية ، ثم كفر بهذه القيم عندما اكتشف ان اساتذته الذين لقنوه اياها ، يخونونها في كل لحظة ، فتخلى عن لامبالاته ، واكتشف شخصيته الوطنية ، بل واتضح امامه ، عندما كان في باريز ، ان خلاص شعبه ، ومجتمعه ، لا يكون الا على يد منظمة ثورية (كحزب الشعب) . الا انه ، حتى في علاقته بهذا الحزب، الذي آمن به ، كان سلبيا ، لانه كان ضائعا . فارزقي ، الذي وضع يده على سبب مشاكل شعبه ، وعلى شخصيته الوطنية ، لم يكتشف وجوده،

شعر

من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
العودة من النبع الحالم	سلمى الجيوسي
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

لان الهزات النفسية التي تخللت حياته ، والخيبات المتتالية التي مرت به ، كانت اقوى من ان تتحملها طبيعته الجسمية ، والذهنية والعصبية. وكيف نطلب من شخص فاقد لوجوده، فعالية لثوريته ، وايجابية لتمرده.

واذا قارنا بين شخصيتي معمري في « الهضبة المنسية » : مقران ومناش ، وبين شخصية ارزقي وجدناها كلها ، مطبوعة بطابع واحد ، وهو الضياع والغموض ، وميوعة اتخاذ المواقف . الا ان تطورا كبيرا قطعة معمري في شخصية ارزقي . كان مقران ضائعا ضياعا ليس له معنى ، في مجتمع لم يكتشف اسباب تناقضاته ومشاكله ، بل لم يحاول ابدا البحث عن هذه الاسباب . اما ارزقي فضياعه له مبرراته ،ومعناه ومغزاه البعيد ، فهو ضائع واع ، يعرف الاسباب التي تسببت فيهذا الضياع ، لكنه وقف عاجزا امام اكتشاف الخلاص ... كالطبيب الذي يعرف الداء لكنه يعجز عن ايجاد الدواء .

كان مقران في « الهضبة المنسية » ، مقران ما قبل الثورة ضائعا ضياعا لاواعيا . وجاء ارزقي ما بعد الثورة باشهر ضائعا ، فاقدا لوجوده ، واعيا بهذا الضياع والفقدان . بقي على معمري ان يخطو الخطوة التالية ، وهي اكتشاف الانسان في الجزائر ، الانسان الذي انتصر على الضياع واسترد وجوده في هذه الثورة العظيمة .

والشخصية التي تتلو ارزقي في الاهمية ، هي شخصية شقيقه « سليمان » . كان سليمان بسيطا ساذجا ، خرج من القرية خاما لا يعرف شيئا عن الحياة ، باحثا عن العمل . وكانت اول صدمة اعترضته علاقته « بالكولون الفرنسي » عندما عمل في حقوله في قطف العنب . كان يقوم بعمل شاق مقابل مبلغ ضئيل من المال : « يدور العمل من النجوم الى النجوم » (ص ٦٦) . لكن عمله لا يدوم في حقل المعمر ، لانه يضرب وكيله الذي ضرب راعيا صغيرا ، ارضاء للاقطاعي الفرنسي، ويهرب وهو يتساءل ببراءة : « لماذا ضرب هذا السخيف الراعي ؟ » . وقد سبق لسليمان ان التقى بذلك الشاب الحزبي الثوري ، الذي يلعب دورا كبيرا في حياته ، ويدعى لوناس ، فعندما يروي سليمان لصديقه تقاليد مجتمع قريته ، والعداوة المتحكمة بين عائلة رابح او هملت ، وبين عائلته : آيت وندلو ، يجيبه لوناس : « يجب ان تسقط كل ما هو هرم . فهذه كلها قصص من العهد البائد » (ص ٧١) . ويسأل سليمان صديقه عن اصله ، والقرية التي ينتسب اليها فيجيبه : «انني جزائري » . وحتى عندما يحدثه عن تودير ، عميل الادارة الفرنسية ، يجيبه : « انه جزائري ايضا ... باع ابوك لانه جاهل ، او لانه يعرف معرفة خاطئة ، ولم يجد ابدا من يشرح له ... » ويحدثه عن شقيقه الملحد ارزقي الذي انكر وجود الله فيقول له : « انه ضال ، وسيعود يوما ، وسوف ترى عندما يعود الضالون، انهم القى من الذين لم يتيهوا ابدا ، لانهم كانوا اكثر تمزقا ... » (ص ٧٤) .

ويعود ارزقي الى القرية ، وقد قرر الانضمام الى خلية من خلايا حزب الشعب ، والتزوج بياقوت آيت هملت . ومنذ ان تعرف للوناس وهو يحس بسعادة ، فهو يقول في طريق عودته الى قريته : « كل شيء كان جميلا : الطريق والحياة واغزير والجزائريون ، كل الجزائريين وحتى اعداؤنا الذين لم يصيروا اعداءنا ، الا لانهم لم يجدوا ابدا من يوضح لهم ذلك » . ويرجع الى القرية ويلتقي بياقوت فيناديها بقوله : «ياقوت الجزائرية » . بعد ان كانت « ياقوت آيت هملت ».

ويعود سليمان للقرية وهو مكتشف للحقيقة ، فبعد ان كان ضالا في تقاليد ومفاهيم مجتمع القرية الضيق ، رفعه لوناس الى مستوى : « الجزائرية » وكان سليمان كلما اعترضته مشكلة ، تمنى لو كان صديقه الى جواره ليحلها ، او يرشده الى حلها : « سليمان متقدم عنا بخمسين بل بمائة عام ، انه يفرض دائما القانون الجديد ، لكنه لا يقول شيئا عن الطريقة التي يتخلى بها القديم للجديد » (ص ١١٢) .

واذا قارنا بين شخصية سليمان ولوناس ، وبين شخصية ارزقي ، وجدنا الفارق واضحا بين النوعين ، فارزقي يمثل الشاب المتعمق في الثقافة الفرنسية تعمقا جعل مفاهيمه حول الحياة ، تكسوها مسحة من التجريدية . وهذا النوع موجود بين شبابنا المثقف بكثرة . اما سليمان ولوناس ، فهما يمثلان هذا النوع من الشبان : الفلاحين ، والعمال البسطاء او المستثنيين ، الذين يملكون تجارب ذات قيمة . هذا النوع الذي يملك استعدادات ثورية اكثر من غيره . وان المتصفح لتاريخ الحركة الثورية في الجزائر ، لواجد ان شباب الطليعة الذين فجروا الثورة ، كنهم من هذا النوع الاخير : فزيفورد ، وديدوش ، وبن المهيدي، وابن بلله ، وبو العيد ، وعميروش ، وعبد الرزاق، وبوصوف ، وكريم ، وابن طوبال ، وغيرهم من ابطال ثورتنا ، ليسوا بخريجي جامعات ، ولا يذوي ثقافة عالية . وانما هم شبان مستثيرون ، اكتسبوا تجارب عسكرية وثورية ، واتاح لهم عدم انفصالهم عن جماهير الشعب الكادحة، ان يتفهموا امكانيات شعبهم الخلاقة .

ثم تأتي بعد ذلك شخصية الاب ، الذي يمثل جيل آبائنا . فهو طيب ، بسيط ، مستسلم للاقدار ، راض بقسمتها ، صابر على قساوة الحياة ، ومصائبها . له نفس طموحة الى البناء ، فعندما يسأله احد ابنائه ، لماذا يريد لابنه حرفة البناء ؟ يجيبه بسذاجة : « لانه جميل ان تبنى البيوت » (ص ١٨) . وهو محافظ على تماسك الاسرة ، فعندما ييأس من شفاء ابنه موحند المسلول يقرر بينه وبين نفسه ان يتزوج ابنه الاصغر زوجة موحند ليبقى احفاده تحت رعايته .

واهم جانب في شخصية الاب يركز عليه الكاتب ، علاقته « بالمحافظ الفرنسي » ، وبالمرابي تودير ، فعندما يطلق الرصاص على ابنه ارزقي يستدعيه الكوميسار (المحافظ) . وهو لاول مرة يتلقى دعوة من هذا النوع ، فينسج له خياله ، وطيبته آمالا واسعة في هذه المقابلة . فهو يرجو من « الكوميسار » ان يقرر منحة لابنه المسلول الذي اخذ المرض من مصانع (رونو) الفرنسية . وهو يرجو منه ان يدخل ابنه سليمان الى « مدرسة للبناء » . ويمثل الاب امام الكوميسار ، فتتلاشى آماله، بل يهان ، لاول مرة ، على يد هذا الفرنسي المتعجرف . ويابى عليه اعتزازه بنفسه وشخصيته ان يسكت على هذه الاهانات . فالكوميسار يساله : « لماذا لا تتكلم ككل الناس اللغة الفرنسية ؟ » ويجيبه بواسطة المترجم : « قل له ، اذا لم يكن كلامي هذا يهينه ، ان اللغة القبائلية هي لغة اجدادي ... » (ص ٢٢) . ويمتنع المترجم عن نقل هذا الجواب .

وتتبخر آمال الشيخ المسكين ، فهذا الكوميسار القريب منه مكانا ، هو في الحقيقة بعيد عنه بعدا سحيقا : « وعمل كل ما في وسعه ليكون سمحا حلو المذاق ، كان يمد يديه الى ابعد نقطة يستطيعها ليصل الى الاخر . لكن ، يا الهي ، ما ابعده ، الاخر .. ما ابعده » (ص ٢٣). وتنتهي المقابلة بحرمان الاب من بندقيته ، وبطاقات التموين ، عقابا له على مشاركة ابنه سليمان في خلايا « حزب الشعب » . ويصفق الاب المسكين لقرار سحب البطاقات منه ، فيقول للكوميسار : « وكيف ناكل؟» ويجيبه المحافظ : « اطلب الخبز من زعيم الحزب الوطني » (ص ٢٤).

وعند نهاية المقابلة يقول الفارس للاب : « من العادة توجيه الشكر للكوميسار ، فعندما ترجع الى بيتك ارسل رسالة تشكره فيها على طيبته » (ص ٢٦) . ويعلم الاب أن تودير هو الذي وشي به الى الكوميسار ... ويرجع الى البيت وهو محطم . فحتى البطاقات ـ مصدر خبزهم اليومي ـ حرم منها . فمن أين يقتات هو وابناؤه ؟ وتأبى طبيعة الفلاح الخير .. هضم هذا الظلم : « لماذا يعمل بعض الناس على اشقاء الاخرين ؟! » . وتتلاحق المصائب دفعة واحدة ، ففي الطريق يقابل رابح او هملت ، أمين أغزير ، ويخبره هذا بان ابنه سليمان طلب يد ابنته ياقوت . وتثور ثائرة الاب . أمن المعقول ان يتزوج شاب من ال وندنو ، بفتاة من ال هملت؟ ان هذا لعار ، عار يلحق بعائلته الشريفة.

وتستمر طبيعة الاب الخيرة الساذجة في تساؤلاتها : « لماذا ضحالة تودير ؟ وجنون سليمان ؟ ومرض موحند ؟ لماذا ؟! » وتتطور هذه التساؤلات الى هذيان محموم ، ويتذكر أنه من سلالة ملعونة ، فازواو هو الذي ذبح ابن حاند الوحيد لكي يحرمه من ابناء يعمرون بعده . ثم ينتقم حاند فيذبح كل ابناء ازواو ، ويبقى رضيعان من العائلتين فقط هما اللذان يضمنان للنسل البقاء . وازواو هو الجد البعيد للاب، وحاند هو الجد البعيد لتودير . والذي دفع ابن ازواو الى قتل ابن حاند ، نقمة الفقير الذي يبيت يمزقه الجوع ، الى جوار غني متخم ... وتشاء الاقدار ، ان يعيد التاريخ نفسه ، فتودير حفيد حاند يرفل في الخيرات والنعم ، التي بناها على حساب سعادة الاخرين . بينما يلوث الاب ، حفيد ازواو ، وأسرته جوعا ... ويشتد بالاب الهذيان فتتزاحم افكار سوداء على رأسه ، وتسر له الانتقام من تودير الذي تسبب له ولسكان القرية في هذه المصائب كلها ، واغتياله .

اما شخصية « تودير » فهي تمثل هؤلاء المتعاونين مع الفرنسيين ، فمعظم هؤلاء ـ في نظر الكاتب ـ ضحية لعقد وتمزقات نفسية عميقة الاثر ، دفعتهم لارتكاب هذه الخيانة البشعة . فتودير يعيش ـ منذ قرون ـ معفرا باللعنة التي نزلت على سلالة جده حاند الشرير . وقد عاش اسلافه كلهم محتقرين في مجتمع القرية . وابو تودير مات منسولا ، وقد احتفظ ابنه بالوعاء الذي كان يجمع فيه فضلات موائد السادة ، وعلقه في مدخل بيته ، حتى تبقى صورة الفقر واللعنة ماثلة ـ دائما ـ امامه . فيندفع بعزيمة قوية الى اجتثاثهما من الاساس . وهكذا كان تودير مدفوعا الى اتباع طرق غير شريفة .. فهو يتعاون مع السلطة الاستعمارية ويتجسس على مواطنيه ، لحساب الكوميسار ، ويسلك طرق الربا ليحصل على المركز الاجتماعي الذي يزيل عنه اللعنة.

ويجمع تودير الثروة ، ويغتنك « الامانة » من رابح او هملت ، ويزوج ابنه من ابنة عمدة (قائد) . ويقرر تودير بينه وبين نفسه ان تكون وشايته باجتماع فرع الحزب ، يوم حفلة زفاف ابنه ، اخر عمل شرير له . ويرجع الى بيته في المساء ، بعد ان يلقي البوليس القبض على كل شباب القرية ، ومن بينهم ابنه . ويجلس في طرف الحوش ، وهو يحدث نفسه عن مشاريع المستقبل : التوبة ، الذهاب الى الحج لغسل العظام ... فلقد وصل الى مبتغاه ... وتنطلق في هذه اللحظة رصاصة من بارودة موحند المسلول المحتضر ، فترديه قتيلا ..

ان القاسم المشترك بين شخصيات معمري ، هو الاصل الطيب للناس: لجميع الناس . فهو يرجع سلوك الفرد دائما الى جذوره ، ويقدم لنا اخطاء الانسان على انها نابعة من عقد اقوى من ارادته . فمعمري انساني كبير في نظرته للبشر : الاصل في الناس كلهم الخير ، ومسالكهم الشريرة طارئة تسببت فيها ظروف . ولو اختفى الجشع ، والانانية ، والجهل ، والسطحية من الكون لعاش الناس في سلام . وينجح معمري في اقناع قارئه بفلسفته هذه ، عندما يجعله يشفق على شخصياته المريضة ، وتمتد هذه الشفقة لتشمل حتى المذنبين منهم .

واذا قارنا بين مفهوم الوطنية في روايتي معمري ، فاننا نجده يقطع خطوات واسعة في روايته الثانية . فبعد ان كان يدور في دائرة بربرية ضيقة ، ويعزل « القبائل » عن الجزائريين كلهم في « الهضبة المنسية »» اتسعت مفاهيمه في « سبات العادل » . فلوناس ، عندما يجيب عن سؤال سليمان بقوله : « أنني جزائري » ، وسليمان عندما ينادي فتاته : « ياقوت الجزائرية » كل هذه لبنات تقيم شخصيات الرواية في اطار الجزائرية ، وتقدمهم للقارىء على انهم خيوط في نسيج عام اسمه : « الجـــزائر » .

اما اسلوب المؤلف ، فهو الذي عرفناه في « الهضبة المنسية » : عذوبة وجزالة ، مع مسحة شاعرية ساحرة . ولعل روعة اسلوب معمري تكمن في ربطه لسلوك اشخاصه بحالتهم النفسية ، وهذا هو الذي يمنح القوة والحيوية لوصفه. فالاب يصيبه ذهول امام سحب الكوميسار لبطاقات التموين منه : « دار مرة او ثلاثة ... حول الكرسي ، دون ان يعثر على الباب . اصطدم بكرسي ، بجدران ـ وخصوصا بالجدران ـ وبالفارس ، كان كالنحلة يصطدم بالزجاج في اتجاهه الى الشمس ..» (ص ٢٧) وهو : « يرى اصابع الكوميسار (وهو يجرده من مصدر رزقه) تطبق بتشنج على رقبة خيالية » (ص ٢٨) .

ومناجاة حاند لروح ابنه القتيل تعتبر من اللوحات الخالدة في الرواية ، وتذكرنا بمناجاة اعزي العاقر لضريح الشيخ عبد الرحمن . واسلوب معمري غني باللمسات الموحية ، فعندما يفر سليمان ولوناس من مزرعة الاقطاعي الفرنسي ، يسأل رفيقه : « وكيف عرفت اننا مطاردون ؟ » يجيبه لوناس بثورية بعيدة : « لاننا منذ زمن طويل ونحن ـ كلنا ـ مطاردون » (ص ٧٢) . ويبدو ان الكاتب استفاد كثيرا من محفوظاته من الادب الشعبي في تلوين اسلوبه ، فالتشابيه التي ترد ـ مثلا ـ في رسالة الاب لابنه سليمان لا تكون الا مترجمة عن هذا الادب : « انني في حالة سيئة جدا ، لانني في شتاء حياتي ، والبرد شديد في قلبي ، والثلج ينزل على احشائي (ص ٧٥) .

مجموعات « الاداب »

لدى ادارة «الآداب» مجموعات السنوات الماضية مجلدة وغير مجلدة وهي تباع كما يلي:

	غير مجلدة	مجلدة
السنة الاولى		١٠٠
« الثانية	٢٥	٣٠
« الثالثة	٢٥	٣٠
« الرابعة	٢٥	٣٠
« الخامسة	٢٥	٣٠
« السادسة	٢٥	٣٠
« السابعة	٢٥	٣٠

ويعبر الكاتب من التناقضات التي تعيشها الجزائر العاصمة فيبدع : « كانت « الفيلات » البيضاء ، والوردية ، والصفراء ، نائمة وسط خضرة الاشجار . ومن هناك ينبسط حي من الصفيح في منخفض ...» (ص ١١٥) ويصف الطبيعة الجزائرية فيبدع : « الشمس شديدة الوطأة ، الاطباق بها البهارات ، عيون البنات سوداء ، وبشرتهن سمراء، الارض جافة ، المنابع في معظم الاحيان غائرة . الرمال محرقة ، والشهوات ملتهبة » (ص ٢٤٤) .

وهو يصف منظر ارزقي وزملائه الضباط حول كومة الكتب المحترقة فيبدع : « لم يبق حول النار الا الطبيب والقس ، ولو مارشان ، وارزقي ، كلهم واقفون ، الاذرع خافقة ، النظرات مركزة على النار وكأنها نائمة ، فهم اشبه شيء بجماعة من رهبان قبيلة متوحشة ،يحيون صلاة بدائية ، في بلد بعيد ناء ... » (ص ١٤٧) .

اما البناء الروائي في « سبات العادل » ، فهو يختلف عن بناء « الهضبة المنسية » . فالمؤلف يتبع طريقة جديدة ، فيقسم روايته الى اربعة اقسام : « القسم الاول: الاب . والقسم الثاني : الابن (سليمان) والقسم الثالث : الملاك (ارزقي) . والقسم الرابع : كلهم الى الجنة الخضراء (مصير الاسرة) » . ويبدو للقارىء من الوهلة الاولى ، ان التقسيم لم يؤثر كثيرا على تشابك حياة النماذج . في رايي ، انالرواية الاولى أعلى مستوى ـ من ناحية البناء الروائي ـ من الرواية الثانية . ويمتاز البناء الروائي لاعمال معمري كلها بظاهرة تركيز المؤلف على الاشخاص ، اكثر من تركيزه على الحوادث . فهو يعبر عما يريده ، من خلال سلوك نماذجه ، ومن خلال حركتهم وتجاربهم ، يطرح امامنا المشاكل الاجتماعية والانسانية والذاتية . ومن خلال عقدهم يحلل لنا المصائب التي تمزق البشرية في كوكبنا هذا .

وان معمري ـ كما سبق ان وضحنا ـ قطع خطوات في روايته الثانية ففي الهضبة المنسية كان ضائعا في مفاهيم تجريدية مذبذبة ، وتمزقات ذاتية غائرة ، واقليمية بربرية ضيقة . ثم اكتشف طريقه في « سبات العادل » فوجد جزائريته ، وتخلص من عدد كبير من مفاهيمه التجريدية البعيدة عن الواقع ، وتمزقاته الذاتية . الا انه لم يصل بعد الى درجة نرضى عنها كل الرضى . وثقتنا في كفاءة معمري ، وعمقه ، ونزاهته ، والمثقف الشريف الذي يمثله ، تجعلنا ننتظر منه ان يخطو الخطوة الثالثة فيكشف لنا النقاب ، عن ثورية الانسان الجزائري، وتعبيره عن الذات العربية النزاعة الى الحرية والابداع ، ومحبته للسلام ، في ثورة دخلت سنتها السادسة . لقد ادخل معمري « القبائلي » ـ في روايته الثانية النسيج الجزائري . واننا لننتظر منه ان يدخل في اعماله الادبية المقبلة هذا الجزائري النسيج العربي . وخاصة وان هذه الثورة ، برهنت بحجج لا يتسرب اليها الوهن ، ان العرب الذين عاشوا التجربة الثورية في الجزائر ، لعبوا دورا كبيرا في استمرار هذه التجربة وعمقها . وان ثوار الجزائر كانوا يحاربون بالعروبة التي حرموا من ممارستها طيلة مائة وثلاثين سنة .

ان معمري كاتب جزائري يمثل جيلا جزائريا من الكتاب ، فضت عليه الظرف التي عاشها وطنهم الصغير ، ان يعيشوا في تناقضات ، ويمروا بتعثرات في سيرهم قبل اكتشافهم لذواتهم ، وعثورهم على وجودهم ، واعماله جديرة بان تترجم الى العربية ، ويطلع عليها الملايين من ابناء العروبة في مشارق الارض ومغاربها .

الخليج العربي ـ الكويت — عثمان سعدي

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينان
او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشانها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب ٤١٢٣